

ثالثاً

الفلسفة الحديثة

## نحو إبستمولوجيا تعددية

سماح عبد الله محمد إسماعيل (\*)

### ملخص

يتناول البحث كيف تمثلت النظرية الفلسفية في فلسفة الحداثة أساساً فيما يسمى بالأسسية، والفلسفة الأسسية هي البحث عن مبدأ أو أساس أولى تستند عليه تفاسير وشروح الفلاسفة ليس فقط فيما يتعلق بالعالم الطبيعي وإنما أيضاً فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والمعرفية على السواء، على المقابل يتمثل هدفنا في تناول كيف ظهرت الفلسفات ضد الأسسية من داخل صميم التيارات الفلسفية المناصرة والداعية للتعددية بكل أشكالها المنهجية والثقافية. وتستعمل الباحثة المنهج التحليلي بشكل أساسي.

### كلمات مفتاحية:

الفلسفة الأسسية، الفلسفة ضد الأسسية، اللامقايسة العلمية، البنائية الاجتماعية.

### Abstract:

This study addresses how philosophical theory was represented in the philosophy of modernity mainly in what is called fundamentalism. The fundamental philosophy is the search for a principle or a primary basis on which the interpretations and explanations of philosophers are based, not only in relation to the natural world, but also in relation to social and cognitive life alike. On the other hand, our goal is to address How philosophies against fundamentalism emerged from within the philosophical currents that advocate and advocate pluralism in all its methodological and cultural forms. The author mainly uses the analytical method analytical method.

(\*) باحثة دكتوراه، قسم الفلسفة، جامعة القاهرة.

## مقدمة

إن نقطة انطلاقنا في هذا البحث من مرحلة نظريات العلم الأسسية ونقدها لتكمل إبستمولوجيا التعددية المسار نحو معارف متعددة، وتنص النزعة الأسسية على «امتلاك أساس ثابت لمعرفتنا، وعلى هذا الأساس نستطيع تبرير معارفنا»<sup>(١)</sup>. بداخل فلسفات البحث عن المبادئ أو العلل الأولى لا مكان للحديث عن الاختلاف والتنوع والتغير، كل تركيز هذه الفلسفات انصب على البحث عن الوحدة بكل أشكالها، الوحدة المنهجية، الوحدة في العالم الطبيعي، والوحدة على المستوى التاريخي والثقافي والحضاري والمعرفي. كانت محاولات غالبية فلاسفة اليونان لتفسير الوجود تهدف إلى الوصول للمبدأ أو العنصر الأول الذي نشأ عنه الكون، فالواحدية من صفات الإله وبالتالي وجب البحث عنها في كل صور الوجود الأنطولوجي، وكذلك داخل عالم المعرفة والرقم واحد كان رقم مقدس عند الفيثاغوريين، فلا مكان للتعددية فالأولوية للمبدأ الواحد البسيط، وليس هناك علاقات تجمع بين الأشياء، «فهذه العلاقات هي ما تسهل عملية الدمج والتوحيد بين الأجزاء في وحدة واحدة كلية، فإما أن يكون العالم مرتبطا ببعضه بعضا وإما لا عالم على الإطلاق.... فإما الكل موجود وإما لا شيء على الإطلاق»<sup>(٢)</sup>.

## أولاً: نقد النزعة الأسسية

النزعة الأسسية هي اسم أطلق على تلك الفلسفات التي هدفت البحث عن أساس أو مبدأ أولي تنطلق من خلاله وعلى أساسه في بناء رؤيتها أو نظرياتها المعرفية، وقدمت إلينا هذه الأسس بوصفها أسساً كلية ثابتة صالحة بشكل مطلق لكل زمان ومكان، الأسسية هي واحدة ضد كل تعددية ترتهن بالفلسفة الحديثة وترتد إلى ديكارتر.

لقد رأي آير أن «وظيفة المبادئ الأولى هي الإمداد بأساس محدد لمعرفتنا.... ومن حق الفيلسوف فرض مبادئ أولى محددة وعرضها مع نتائجها بوصفها صورة كاملة عن الواقع»<sup>(٣)</sup>.

(١) كد، آن، التعددية الثقافية كفضيلة معرفية، كتاب: نقض مركزية المركز: الفلسفة من أجل عالم متعدد بعد استعماري ونسوي، ترجمة ميني طريف الحولي، الجزء الثاني، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص ٢٠٨.

(٢) جيمس، وليم. عالم متعدد. ترجمة وتقديم: أحمد الأنصاري، مراجعة: حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٤٦، ٥٠.

(3) Ayer, A, J, Language, Truth, And Logic, Cambridge University Press, p.15.

كما سنرى تحت لواء الدعوة إلى ضرورة الوصول لمبدأ أو أساس واحد يُستند إليه في تفسير كافة الظواهر والقضايا المعرفية والوجودية، لن نجد سوى إقرار واضح وصريح بالواحدة في الوصف والتفسير، «النزعة الأساسية Foundationalism من أساس Foundation الذي يعني:

١- ما يتسبب في وجود شيء ما فيقال إن العالم المعقول أساس المحسوس.

٢- ما يبرر فكرة ما، وما يحدد قبولها المشروع....

٣- مبدأ تستند إلى جملة ظواهر أو قضايا...<sup>(١)</sup>

«النزعة الأساسية هي مسمي عام للمحاولة الفلسفية من أجل التسليم بأسس كلية مجردة أو تبريرات لحقيقة المعرفة والقيم»<sup>(٢)</sup>، وهذا يعني أنها «تمثل بشكل جوهري رؤية متعلقة ببنية المعرفة والتبرير الإبستمولوجي»<sup>(٣)</sup>. «أخيراً النزعة الأساسية.... في نظرية المعرفة هي الفكرة القائلة أن هناك بعض المبادئ الأولية التي يمكن تأسيسها لتكون بمنأى عن الشك، وإنما بهذه المبادئ نستطيع تبرير كل ما يمكن أن نسميه معرفة».

أما فيما يتعلق بالنظرية العلمية والتصوير الفلسفي التقليدي لها، ذلك التصور الذي أقر فقط بأهمية وقيمة الملاحظة والفروض والمفاهيم والخصائص المنطقية الداخلية للعلم، ونجد بداخل هذا التصور لا مجال للحديث عن تاريخ النظرية وبنيتها الاجتماعية والإنسانية، النظرية العلمية بمعناها التقليدي لا تتعدى كونها كما ورد في قاموس أكسفورد مجموعة من الأفكار تهدف إلى تفسير شيء ما أو تبريره؛ «فالنظرية مجموعة من الفروض... ويقسم فلاسفة العلم النتائج إلى نتائج تشير فقط للخصائص والمزايا التي يمكن ملاحظتها، وتلك التي تشير إلى الخصائص والمزايا التي لا يمكن ملاحظتها»<sup>(٤)</sup>.

من التعريفات السابقة للنظرية العلمية نجد أنه ليس هناك أية إشارة وبتعبير فيرآبند «للأمثلة أو النماذج التاريخية تلك التي يرى أنها لا تؤسس لنظرية علمية بل تدعمها»<sup>(٥)</sup>،

(١) وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص، ٤٧.

(2) Barker, Chris, The Sage Dictionary of Cultural Studies, Sage Publications, London, 2004, p.71.

(3) Audi, Robert, The Cambridge Dictionary of Philosophy, Cambridge University Press, 1999, p.321.

(4) Ibid, 701.

(5) Fyerabend, Against Method. Verso, London, New York, Third Edition 1993, p.8.

وعدم الإقرار بقيمة وأهمية النماذج التاريخية المختلفة سوف يؤدي بنا إلى الإقرار بوجود نموذج واحد سيظل مسيطراً وموجهاً ومتحكماً بالنظرية العلمية إلى أن يتم نقده بنموذج آخر ليحل محله وهكذا. ويتم إدراك العالم من خلال النموذج الجديد، ويرى فيرابند «أن المصادر والأمثلة التاريخية والاجتماعية المختلفة بإمكانها إمدادنا بطرق مختلفة لفهم وإدراك العالم من حولنا»<sup>(١)</sup>.

المعنى التقليدي للنظرية العلمية «بوصفها فرضاً علمياً يربط عدة قوانين ببعضها ببعض، ويردها إلى مبدأ واحد يمكن أن نستنبط منه قيماً وأحكاماً وقواعد»<sup>(٢)</sup> هو المعنى الذي ساد وانتصر لفترات زمنية طويلة وأطلق على هذه الفترات داخل دراسات التعددية الثقافية مرحلة نظريات العلم الأسسية الحداثية ويقابلها كما سنرى مرحلة نظرية العلم ضد-الأسسية بعد الحداثي.

### ١- التعددية مقابل الواحدية:

الوقوف على المعنى اللغوي والفلسفي لكل من التعددية والواحدية سوف يعيننا كثيراً على إدراك وفهم علاقة «الضد» التي تجمع بين التعددية والواحدية وإدراك هذه العلاقة من شأنه مساعدتنا على فهم إبستمولوجيا النزعة الأسسية الحداثية بوصفها تمثيلاً واضحاً وصریحاً للواحدية بكل ما تضمنه وتشير إليه من معاني وفي المقابل نجد الإبستمولوجيا ضد-الأسسية بكل ما تحمله من قيم ومعانٍ ومبادئ التعددية.

كلمة التعددية في اللغة العربية اسم من الفعل تعدد يتعدد، التعدد هنا يفيد الكثرة والاختلاف والتنوع، أما في اللغة الإنجليزية فمعنى التعددية كما ورد في قاموس أكسفورد هو وضع أو نظام تعايش من خلاله طبقتين، جماعتين، معتقدتين، مذاهبين، جوهرين، قاعدتين، أصليين، مصدرين، حقيقتين، نظريتين، فرضين، مفهوميين... إلخ أو أكثر من التواجد أو التعايش معاً، وتعني أيضاً نظرية أو نظام سياسي متعلق بالحق في المشاركة في السلطة بين عدد من الأحزاب أو الأطراف أو المجموعات السياسية. أما كلمة الواحدية فهي من الواحد الثابت غير المتغير الذي لا يشاركه أحد في صفاته وخواصه، المنفرد بصفات وخواص ثابتة

(1) Ibid, p.8.

(2) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٢٠٢.

وضرورية. من الناحية الفلسفية التعددية هي «نزعة فلسفية ترمي إلى تفسير الوجود، والمعرفة والسلوك في ضوء مبادئ متعددة وتقابل الواحدية والثنائية»<sup>(١)</sup>، «التعددية رؤية فلسفية متعلقة بالعالم وتؤكد على التنوع بدلا من التماثل، التعدد بدلا من الوحدة، الاختلاف بدلا من التشابه»<sup>(٢)</sup>.

تعود التعددية بجذورها كما سنرى إلى الفلسفة اليونانية واهتمامها بمشكلة الوحدة والكثرة أو الواحد والكثير أو الواحد والمتعدد، ويأتي رواد المدرسة الإيلية اليونانية وعلى رأسهم الفيلسوف اليوناني بارميندس مدافعا عن «وحدة الوجود الثابت المطلق الأبدي المتطابق تماما مع الضرورة العقلية، وفي مقابل المدرسة الإيلية هناك من فلاسفة اليونان الأوائل المؤيدين للتعددية مثل أنبادوقليس، أنكساجوراس، والذرين (ليوقبس وديموقريطس) الذين دافعوا عن أن الواقع يتكون من موجودات متعددة»<sup>(٣)</sup>.

ومع الانتقال إلى العصور الحديثة تقابلنا الثنائية المقابل الأخر للتعددية والوجه الآخر للواحدية، «انقسام الوجود للجواهر العقلية والجواهر الجسدية، العقلي والجسدي هما فقط اثنان من نماذج عديدة لهذا الجوهر الواحد»<sup>(٤)</sup>. اعتبر ديكارت بوصفه قدم أوضح مثال عن «الثنائية الفلسفية..... مذهبه المتعلق بالجواهرين المتميزين- الجوهر اللامفكر الممتد مقابل الجوهر المفكر اللامتد»<sup>(٥)</sup>.... «وناشد إسبينوزا النظرية الثنائية- أطلق عليها أيضاً نظرية الجانب المزدوج التي بموجبها العقلي والجسدي نماذج متميزة للجوهر الواحد، الله»<sup>(٦)</sup>. ووصلت الواحدية إلى درجة عالية إلى مداها عند إسبينوزا «فالكون عنده إنما هو حقيقة واحدة، جوهر واحد، عنصر واحد، هو العقل»<sup>(٧)</sup>.

«داخل تاريخ الفلسفة هناك فلاسفة ينتمون إلى التيار العقلي وفلاسفة ينتمون إلى التيار

(١) المرجع السابق، ص ٤٨.

(2) Audi, Robert, OP cit, P. 714.

(3) Ibid, p.714.

(4) Ibid, p.686.

(5) Ibid, p.714.

(6) Ibid, p.686.

(٧) محمود، زكي نجيب، (١٩٣٦). قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،

التجريبي، المذهب العقلي يمثله أرسطو والفلاسفة الإسلاميون والاسكولائيون اللاتين وديكارت وإسبينوزا وليبنيس»<sup>(١)</sup>. آمن فلاسفة الواحدية العقلية بالعقل وبقدرته على معرفة الأمور أو العلم بالأشياء والحقائق، وتتسم هذه المعرفة باليقين والصحة الدائمة وغير قابلة للتعديل أو التغيير لأن قوامها العقل، و«لغويًا العقل: العلمُ أو بصفات الأشياء من حسننها وقبحها وكماها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين، وشر الشريرين أو مطلق لأمرٍ، أو لقوةٍ بها يكونُ التمييز بين القبح والحسن، ولمعانٍ مجتمعةٍ في الذهن.... تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية»<sup>(٢)</sup>، والعقل: «ما يعقل به حقائق الأشياء»<sup>(٣)</sup>.

العقل إذن هو القدرة التي تمكن الفرد من التمييز بين الصواب والخطأ، الخير والشر، الحسن والقبيح، وعن طريقه أيضاً يمكن للأفراد اكتساب المعارف والوصول إلى حقيقة الكون والإنسان والعالم، «العقل يمكن الفرد من إصدار الأحكام الكلية فيكون حده أنه معاني مجتمعة في الذهن تكوّن مقدمات يستنبط منها المصالح والأغراض.... العقل قوة في الإنسان تدرك طوائف من المعارف اللامادية. يدرك العقل أولاً ماهيات الماديات أي كأنها لا ظاهرياً. ويدرك ثانياً معاني عامة كالوجود، والجوهر والعرض، والعليّة والمعلول، والغاية والوسيلة،.... ويدرك ثالثاً علاقات أو نسباً كثيرة ويدرك العقل رابعاً مبادئ عامة في كل علم وفي العلوم إجمالاً»<sup>(٤)</sup>.

### «أما الفلاسفة فإنهم يطلقون العقل على المعاني التالية:

١. إن العقل جوهر بسيط مدرك بحقائقها (الكندي....). وهذا الجوهر ليس مركباً من قوة الفساد (ابن سينا...) وإنما هو مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله (تعريفات الجرجاني).

(١) بدوي، عبد الرحمن (١٩٧٥). مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، ص ١٤٢.

(٢) الفيروز أبادي بن مجد الدين محمد بن يعقوب (٢٠٠٨). القاموس المحيط، راجعه واعتني به أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ص ١١٢٢.

(٣) الجرجاني، علي ابن محمد السيد الشريف، التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي دار الفضيلة، القاهرة، ص ١٢٨.

(٤) وهبه، مراد، مرجع سابق، ص ٤٢٤.

٢. العقل قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني، وتأليف القضايا والأقيسة.  
٣. قوة الإصابة في الحكم أي تمييز الحق من الباطل، الخير من الشر، والحسن من القبيح،  
(ديكارت....).

٤. قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية»<sup>(١)</sup>....

«مبادئ العقل هي الأسس التي يستند إليها العقل في تفكيره. تتصف هذه المبادئ بصفتين رئيسيتين:

- ١- أنها ضرورية، فلا تقبل التعديل ولا الاحتمال، ولا تتوقف على الأفراد والظروف.  
ومن هنا كانت فطرية فينا.
- ٢- أنها تبعاً لذلك كلية، تسلم بها كل العقول، وتحكم على كل الأشياء. ولهذا عرفت  
المبادئ بأنها: الحقائق البينة والضرورية التي تؤلف جهاز فكرنا العقلي»<sup>(٢)</sup>.

#### ومبادئ الفكر أربعة:

- ١- مبدأ الهوية..... رمزياً يعبر عنه هكذا: أ هي أ.
- ٢- مبدأ التناقض، أو بالأحرى عدم التناقض.... الشيء الواحد لا يمكن أن يكون  
والألا يكون معاً..... مثل أسود، لا أسود....
- ٣- مبدأ الثالث المرفوع أو الوسط المستبعد ويقول: كل شيء إما أ أو لا أ. ولا وسط  
بينهما.

٤- مبدأ العلة الكافية: ولو أن لينتس يعد أول من صاغ هذا المبدأ، فإننا نجده مع ذلك  
عند أرسطو في كلامه عن دور الحد الأوسط في القياس إذ عده علة المعرفة.... قسمه  
لينتس إلى ثلاثة أنواع: «العلة الكافية للوجود، العلة الكافية للحدوث، العلة الكافية  
للحقيقة.....»<sup>(٣)</sup> الحقائق الناتجة عن التفكير العقلي توصف بأنها حقائق واحدة  
معروفة لكل العقول، وكلية صادقة على الدوام لا يتغير صدقها زمانياً ومكانياً،

(١) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب العالمي، بيروت، ١٩٩٤، ص ٨٤:٨٦.

(٢) بدوي، عبد الرحمن، مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٥، ص ١٥٦ و ١٥٧.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٠، ١٥٩.



بعبارة أخرى كل «الحقائق التي يدنا بها العقل هي حقائق ضرورية و يقينية مطلقة غير قابلة للتغير، والنموذج الذي يتخذه العقليون مثلاً للمعرفة في صورتها الكاملة هو نموذج الرياضة، فالقضية في الرياضة مثل قولنا  $2+2=4$  أو أن زوايا المثلث تساوي قائمتين صدقها محتوم، وهو صدق لا تغير منه الظروف»<sup>(١)</sup>.

«لما كان التفكير في الرياضة يسير على منهج استنباطي، وهو المنهج الذي يبدأ بمقدمات مسلم بصحتها، ثم ينتزع منها نتائجها، ومن النتائج نتائجها، وهكذا، بحيث يتحتم أن تصدق هذه النتائج جميعها مدام المقدمات مسلمة بصحتها، فقد أراد العقليون أن يكون هذا المنهج الاستنباطي هو منهج التفكير في كل ميادينته على السواء.... فما تسير عليه العلوم الرياضية يمكن أن تسير عليه العلوم الطبيعية، كذلك، فنصل إلى مثل هذا اليقين الذي تصل إليه العلوم الرياضية»<sup>(٢)</sup>. العقل عند أنصار المذهب العقلي هو إذن مبدأ المعرفة الأول سواء كانت هذه المعرفة متعلقة بالكون أو الإنسان، فعند العقل ينبغي أن تصل كافة الجزئيات ليقوم بدور الربط بينها من أجل اتحادها بالجواهر أو المبدأ الكلي الأول، «فالعالم من وجهة النظر الواحدة العقلية كلاً واحداً.... وبدلاً من الحديث عنه بوصفه مكونه من وقائع عديدة، نقول عنه إنه واقع واحد له جوانب متعددة»<sup>(٣)</sup>. ويبدأ العقليون من فكرة وجود هذا الكل (المطلق) ثم يؤسسون عليها كل شيء، يتم استغراق التفسير والحركة داخلها باعتبارها مجرد مظاهر خارجية لها. وحين توافق على هذه الرؤية المنهجية لما هو كائن وثابت، وترفض كل ما هو متحرك ومتغير سريعاً ما تشعر بأنك قد حققت واجباً عقلياً وأشبعت رغبة فكرية<sup>(٤)</sup>.

كل شيء عقلائي عند العقلانيين، الأفكار والحقائق العقلية واحدة عند جميع البشر لا تتغير أبداً تحمل في صميمها صفتي الأبدية واللاهائية، بالإضافة إلى ضروريتها أي صدقها وكليتها صدقها في كل زمان ومكان، أما «التغير فهو من نصيب الأحداث والأشياء الذي يسمو العقل الإنساني فوقها ويفسر مجراها واضعاً قوانين ثابتة، أوضح مثال على ذلك فلسفة الطبيعة عند نيوتن، التي كانت بمثابة الكتاب المقدس عند كل الفيزيائيين»<sup>(٥)</sup>.

(١) محمود، زكي نجيب، نظرية المعرفة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٨. <http://www.hindawi.org>

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤، ٤٥.

(٣) جيمس ولیم، مرجع سابق، ص ٣٥.

(٤) المرجع سابق، ص ٣٧.

(٥) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ١٣٩.

وكما رأينا تستمد حقائق العقل صدقها ويقينها وصحتها المسلم بها من قبل الجميع في كل زمان ومكان من القانون الثاني من قوانين الفكر أو كما يسميه البعض المبدأ الثاني من مبادئ العقل، وهو مبدأ التناقض أو عدم التناقض ووفقاً لهذا المبدأ الشيء لا يمكن أن يكون أو لا يكون في الوقت نفسه مثل قولنا: أولاً، أبيض ولا أبيض، ومثلث ولا مثلث. إذا كان معيار الصدق في الحقائق الرياضية متوقفاً على علاقة المقدمات بالنتائج واللزوم الضروري للنتائج من المقدمات (التحصيل الحاصل)، فإن «معيار صدق الحقائق الطبيعية من وجهة نظر العقليين أمثال: ديكارت وإسبينوزا وليبننتز....، فهؤلاء جميعاً يجعلون معيار الحق اتساقاً والتثاماً ما بين أجزاء النسق الفكري، بحيث يخلو هذا النسق من التناقض فلا يقال عن «قإنها» ليست ق «في النسق الواحد»<sup>(١)</sup>.

ولضمان وصول الإنسان إلى حقائق العقل وجب عليه تطهير أو تحرير عقله من المؤثرات الشخصية والدينية والتاريخية الأخلاقية والعادات والتقاليد والثقافة.... لأن مثل هذه المؤثرات تعد عائقاً أمام الإنسان وتحول دون وصوله إلى حقائق العقل.

إذن «يعد القول من وجهة نظر العقليين أو أي افتراض بوجود علاقات خارجية أو روابط من أي نوع يمكن أن تربط الموجودات المتعددة المستقلة افتراضاً سخيلاً ولا معقولاً... تحقيق الاتصال بين الأشياء يكون عن طريق «المطلق» الإله من الخارج.... (وعن طريقه) يتم تحقيق الاتصال بين هذه الأشياء»<sup>(٢)</sup> ومن هنا كان موقف العقليين المناهض للقول بأهمية وضرورة تاريخ العلم والتركيز في المقابل على منهج العلم ومنطقه.

٢- وعلى الجانب الآخر يقف أنصار المذهب التجريبي أو أصحاب الوحدانية التجريبية، «ففي مقابل هؤلاء العقليين نجد التجريبيين والحسيين وعلى رأسهم جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤م) وجورج باركلي (١٦٨٥ - ١٧٥٣م) وديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦م) وجون ستيوارت مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣م) وكلهم من الفلاسفة الإنجليز»<sup>(٣)</sup>.

«أما في فرنسا فنجد على رأس الحسين كوندياك (١٧١٥ - ١٧٨٠م) وفي الاتجاه التجريبية سارت الوضعية التي أنشأها أوجيست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧م). وفي ألمانيا نجد النقدية

(١) محمود، زكي نجيب، نحو فلسفة علمية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٨٤، ١٨٥.

(٢) جيمس، وليم، مرجع سابق، ص ٤٦، ٤٩.

(٣) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ١٦٥.

التجريبية التي أنشأها رتشرد آفيناريوس (١٨٤٣ - ١٨٩٦م) وكان من أتباعها أويجن درونج (١٨٣٣ - ١٩٠١م) وأرنست ماخ (١٨٣٦ - ١٩١٦م)»<sup>(١)</sup>.

استند أصحاب الواحدة التجريبية إلى أن التجربة هي الأساس في الحصول على المعرفة، وتعد التجربة المبدأ الأولي أو الأساسي السابق على الفكرة داخل العقل، موضوع التجربة وكل ما يظهر بشكل مباشر أمام الحواس أو المادة الواضحة أمام الحواس بكل ما تحويه من خصائص، أما ما يقع خارج نطاق الحواس فهو ليس بمعرفة على الإطلاق وبهذا فقد هاجم التجريبيون الميتافيزيقا وقل ما يقع في نطاقها باعتباره «أموراً غيبية غير عينية أو مادية ولا يمكن للحواس إدراكها ومعرفتها وبالتالي لا يمكن تجربتها أو إخضاعها للتجربة، والتجربة ينبغي أن تفهم على أنها واحدة وكل ما في العالم هو تجربة منظمة»<sup>(٢)</sup>.

«تأتي كلمة التجريبية Empiricism من الكلمة اليونانية Emperia وتعني الخبرة.... كلمة الخبرة Experience حين تأتي بمعرض الحديث عن التجريبية تعني دائماً الخبرة الحسية، أي التجربة التي تعتمد أساساً على عمل واحدة أو أكثر من حواسنا الخمس»<sup>(٣)</sup>، «الفكرة الأساسية التجريبية هو أن الخبرة لها الأولوية داخل المعرفة الإنسانية والمعتقد المبرر»<sup>(٤)</sup>.

«بلغ تأكيد التجريبية والنظرية الحسية في المعرفة والعزوف عن الميتافيزيقا.... ذروته وأكثر.... في إنجلترا إبان القرن السابع عشر مع جون لوك J.lcke... هاجم لوك القياس الأرسطي بطبيعة الحال وأشبعه تهكماً وسخرية.... أكد أن العقل يولد صفحة بيضاء ثم تخطها المعطيات الحسية والتجربة»<sup>(٥)</sup>.

«في القرن الثامن عشر يتزعم التجريبية الانجليزية شكاك اسكتلندا الشهير ديفيد هيوم D.Hume..... قامت فلسفة هيوم على أساس من الانطباعات الحسية وارتباطاتها، الانطباع هو الخبرة الفورية التي يمر بها الفرد حين يدرك شيئاً بحواسه»<sup>(٦)</sup>.

(١) المرجع السابق، ص ١٦٥.

(٢) وهبه، مراد، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٣) جيمس، وليم، مرجع سابق، ص ٨٥.

(4) Audi, Robert, OP cit, P.262.

(٥) الخولي، مني طريف، فلسفة العلم في القرن العشرين،: الأصول، الحصاد، الأفاق المستقبلية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٠، ص ١١٨.

(٦) المرجع السابق، ص ١١٩.

على هذا الأساس ظهرت التجريبية وكانت «تجريبية العلم مع يكون بداية قوية لعلم آمن بالتجربة ووثق فيها بشكل كبير، التجربة البادئة من الملاحظة ومصدرها بالطبع هو كل ما يظهر أمام الحواس، البدء بالملاحظة وتعميم ما تم ملاحظاته هذا هو الاستقراء منهج البدء بالملاحظة وليس مرادفاً للمنهج التجريبي»<sup>(١)</sup>.

«الاستقراء في جوهره عملية تعميم للملاحظات التجريبية. وهذا تعميم يعتمد على مبدأين هما:

أولاً: قانون العلية أي أن كل ظاهرة لها سببها فتتظم أحداث الكون في تسلسل عليّ.  
وثانياً: قانون اطراد الطبيعة بمعنى أن ظواهر الطبيعة تجري بشكل مطرد على وتيرة واحدة لا تتغير، ما حدث اليوم سوف يحدث غداً وإلى الأبد. فكل شيء حدث وسوف يحدث هو مثال لقانون عام لا يعرف الاستثناء مادام محكوماً بعلاقة عليّة ضرورية»<sup>(٢)</sup>.

تمثلت مشكلة الاستقراء الكبرى في كيف يمكن تبرير تلك النقلة أو القفزة من ملاحظة ما هو جزئي لقانون عام ينطبق على هذه الجزئيات والجزئيات المماثلة لها، القانون العام الذي يتم الوصول إليه من خلال الاستقراء قانون يتمتع بالثبات واليقين والضرورة، وليس هناك أية احتمالات ولا استثناءات، ليس هناك إمكانية لتعديله أو تغييره، لأنه ثابت زمانياً ومكانياً، فالثبات الزماني المكاني لا يطرأ عليه التغيير ولا حتى يمكن تعديله.

آمن أصحاب الواحدة التجريبية بالاستقراء بشكل كبير، رأوا أن العقل لا يعرف ولا يصل إلى المبادئ أو غيرها إلا عن طريق الاستقراء. «الاستقراء مردود إلى العلية، والعلية بدورها توصلنا إليها..... عن طريق التجريب، فالتجارب تدل على أن الظواهر ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً ضرورياً هو بلاشك ارتباط العلة بالمعلول..... أبرز الممثلين لهذا الاتجاه جون ستوارت مل وسار وراءه معظم دارو يش النزعة الاستقرائية»<sup>(٣)</sup>.

الاستقراء مثلما كان منهجاً للتجريبين الذين أكدوا على أسبقية التجربة القائمة على الملاحظات أو الخبرات الحسية المستمدة من عالم الطبيعة الكبير الذي يحيط بنا، كان أيضاً

(١) المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٩.

منهج الفلاسفة العقليين لكن الفرق واضح بين هؤلاء، فالتجربة لها السبق والريادة عند التجريبيين أما أصحاب الاتجاه العقلي فقد أكدوا مع أولية الأفكار العقلية السابقة على كل تجربة، هذا هو ما يعرف «بالنزعة الأولانية Aporism أي المصادرة على مبادئ معينة بزعم أنها كامنة في الذهن سلفاً.... وأبرز ممثلي هذا الاتجاه إيمانويل كانط وأيضاً برتراند رسل»<sup>(١)</sup>.

إذا كان الاستقراء البادئ بالملاحظة للحكم من خلال ماتم ملاحظاته على المتشابه الذي لم يلاحظ بعد هو المنهج الذي يعتمد عليه التجريبيون والعقليون على حد سواء، إلى أن حدثت ثورة علم فيزياء القرن العشرين التي زعزعت الإيمان بالاستقراء ونتائج التعميمية الغير مبررة، حثت الثورة بالمنهج الفرض الاستنباطي أي البدء بالفرض المؤقت القابل للتعديل والتغيير إن ثبت عدم فاعليته، أصبح هناك إمكانية للحديث عن الاحتمالات والتعددية المنهجية أصبح هناك إمكانية للحديث عن أشياء لا تقع في نطاق الخبرة الحسية ولا تراها العين لكنها موجودة مثل وجود الذرات والفوتونات.

## ثانياً: الانتقال إلى الإستمولوجيا ضد الأسسية

سيطرت مبادئ ومعايير الإستمولوجيا التقليدية الأسسية طويلاً أو حتى وقت قريب داخل فلسفتنا العلمية المعاصرة، أول ما قابلنا كما رأينا من هذه المبادئ الأولية العقلانية أي الاعتماد على العقل وحده القادر على إدراك الأصول والوصول إلى القوانين الكلية والمبادئ العامة، أما المفاهيم الإستمولوجية تشمل مفاهيم المعرفة، الاعتقاد المعقول، التبرير، الاحتمال (المعرفي)، والمفاهيم الأخرى التي استخدمت لهدف تقييم معقولة الاعتقادات والدعاوي المعرفية، وكما رأينا كان هناك خلاف ونقاش مستمر بين فلسفة العقل وفلاسفة التجربة، وأيهما سابق على المعرفة العقل أم التجربة؟ وكان أهم نتائج هذه المناقشات المثمرة ظهور فلسفات لفلاسفة عظام من أمثال الفلاسفة العقلانيين ديكار ولبنتز وسينوزا، أما على الجانب الآخر وجدنا فلاسفة التجريبية أمثال لوك باركلي وهيوم.

«منذ القرنين السابع والثامن عشر كانت المعرفة البعدية قد اعتبرت بوصفها معرفة..... مؤسسة على خبرة حسية أو إدراكية معينة: والمعرفة الأولية اعتبرت على نطاق واسع بوصفها

(١) المرجع السابق، ص ١٤٩.

معرفة لا تعتمد على أساس داعم لهذه الخبرة. اعتقد كانط وآخرون أن الأساس الداعم لمعرفة أولية يأتي فقط من عمليات عقلية بحثه أطلق عليها «العقل الخالص» أو «الفهم الخالص»<sup>(١)</sup> وبالتالي فالمعارف الأولية هي التي تعتمد على العقل بشكل خالص مثل المنطق والرياضيات، «أما المعرفة التي تبحث في الوجود بشكل عام فهي معرفة بعدية... حاول المعرفيون تحديد العناصر الجوهرية، الواضحة للمعرفة، فتحديد هذه العناصر سوف ينتج عنه تحليل المعرفة. وجهة نظر تقليدية بارزة، اقترحت من قبل أفلاطون، وكانت من بين وجهات نظر عديدة لآخرين، وهي أن المعرفة Propositional القضية بآن الشيء هو (كذلك) له ثلاث عناصر بشكل فردي وكافية معاً: التبرير، الصدق، والاعتقاد.»<sup>(٢)</sup>

ومن هنا كانت المعرفة هي ذلك الاعتقاد الصادق المبرر، المعرفة وفقاً للتعريف السابق أصبحت مشروطة بثلاثة شروط كما هو معروف الشرط الأول هو شرط الاعتقاد أي الاعتقاد في قضية ما وقبولها والشرط الثاني هو شرط الصدق أي أن تكون قضيتنا صادقة، الشرط الثالث والأخير شرط التبرير، وستتوقف عند التبرير قليلاً فالاعتقاد في وجود موضوع ما والإيمان به أو قبوله ثم التصديق أو التأكيد على صدقه يتطلب منا بالتالي ضرورة امتلاك أدلة على صدق قضيتنا موضوع المعرفة هذه الأدلة هي ما عرفت بأدلة التبرير، يتمثل في القول «بأن (ص) مبرر هو القول بأن شيء ما إيجابي متعلق بـ (ص)»<sup>(٣)</sup>، اعتقاد بقضية ما يعني أملاك كافية لاعتقادي في هذه القضية، أو أمتلك أسس قوية وكافية جعلتني أعتقد في هذه القضية. هناك نظريتان للتبرير عرضنا لنظرية منها ونعني بها نظرية الأسس أي الاعتقاد في مبدأ واحد أو أساس واحد مبرر يبني عليه الفيلسوف مذهب الفيلسوف أو رؤيته للوجود بشكل عام، وإذا كنا قد رأينا أن الاعتقاد الصحيح لا بد وأن يقوم على أسس كافية لعل الشيء الأساس الذي يواجهنا به هذا التصوير هو أن أية نظرية في التبرير المعرفي يتعين عليها أن توضح لنا الشيء أو الأشياء التي لا بد من وجودها لكي يقوم الاعتقاد على أسس كافية، ولو حللنا بنية أية نظرية في المعرفة، لتبين لنا أنها تحتوي على ثلاثة عناصر تقريباً: «العنصر الأول هو الأشياء التي تشكل «أسس» تبرير الاعتقادات والتي تتباين بتباين نزعات الفلاسفة ومواقفهم، أما العنصر الثاني فهو معيار أو معايير الكفاية التي يجب أن يستوفيهما الأساس أو الأسس بغية تبرير الاعتقاد الذي يعيننا.

(1) Ibid, p.273, 274.

(2) Ibid, p.274.

(3) Ibid, p.490.

ويأتي العنصر الثالث والأخير ليبحث في العلاقة المؤسسة التي لا بد أن تقوم بين الاعتقاد الذي يعيننا والأسس الكافية لعملية التبرير»<sup>(١)</sup>. «النظريات الأسسية في التبرير وسيلة للصدق»<sup>(٢)</sup>.

التبرير إذن سواء داخل نظريات الأسس أو نظريات الاتساق يعني ضرورة الاستناد على أسس كافية تضمن القبول العقلي لنظرية ما، أو لفكرة ما، أو لرأي ما أي أن التبرير لا يقتصر دوره بداخل الإستمولوجيا فقط، وإنما هناك تبرير أخلاقي لآراء أو أفعال أخلاقية معينة أو تبرير لرأي أو لفكرة سياسية ما....، الاختلاف لم يكن على ما هي الأسس الكافية؟

وجدنا الأسس الكافية داخل النظريات الأسسية متمثلة في المبادئ وصولاً إلى المبدأ الأول الجوهري الصحيح الصادق دائماً وأبداً، التبرير بشكل عام باعتماده على مبدأ «الأسس الكافية» استبعد بشكل واضح إمكانية الحديث عن أي أساس أخلاقي أو ثقافي أو اجتماعي بشكل عام، الأسس والمبادئ العامة هي في جوهرها مبادئ عقلية منطقية صارمة تخضع أولاً وأخيراً لمحكمة العقل بقواعده المنهجية الثابتة والمعروفة في كل عصر بصدقها وصحتها ويقينها، لذا لم يقابلنا عند عرضنا للأسسية أي حديث عن سوسيولوجيا وتاريخ العلم، العمليات الاجتماعية التي تؤثر تأثيراً كبيراً على العلم مثل الحديث عن العلاقات التي تجمع بين العلماء وبعضهم البعض أو بين العلماء والبشر العاديين من غير العلماء، لم نجد حديثاً عن دور البيئة الثقافية في تطور الفكر العلمي لدى العلماء، وكأن العلم هو فقط قواعد ومبادئ وأسس عقلية منطقية محضة، وتأثير التعددية الثقافية بعد الحداثية دخل في الحكم بالصدق أو في معايير الصدق أبعاد أخرى تبلغ ذروتها في البنائية الاجتماعية كما سنرى. من داخل إستمولوجيا العلم طرحت البنائية الاجتماعية التساؤل التالي: انطلاقاً من تعريف المعرفة نفسها هل يكفيها القول بأن المعرفة هي اعتقاد صادق مبرر حسب التعريف التقليدي لها؟ التبرير لا يهتم البتة بما يقع خلف ظهور العلماء ومن خلفيات ثقافية وأخلاقياً بداخل الإستمولوجيا الأسسية التقليدية كان هناك خط فاصل.

وواضح بين سياق الكشف المعنى بخلفيات العلماء الثقافية والاجتماعية التي تدخلت أو أثرت في تشكيل الفروض والنظريات العلمية، قُدمت إلينا البنائية الاجتماعية بوصفها

(١) إسماعيل، صلاح، نظرية المعرفة، مقدمة معاصرة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٢٠، ص ١٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٤.



واحدة من الفلسفات ضد-الأسسية، «البنائية الاجتماعية إنها الأطروحة القائلة إن المعرفة في جوهرها بناء اجتماعي، ذلك أن إنتاج المعرفة محكوم بمحكات اجتماعية لها ما يبررها داخل المجتمع الأصغر للعارفين.....»<sup>(١)</sup>. تعالت الأصوات بعد منتصف القرن العشرين بضرورة ربط العمليات الداخلية للعلم المتمثلة في قواعده المنهجية بالعمليات الاجتماعية والتاريخية والثقافية التي لا يمكن إنكار دورها الهام في ظهور وتطور النظريات العلمية، وكان لهذه الأصوات تأثير قوي على ظهور النظريات ضد الأسسية التي انطلقت «مؤكدة بداخل الإبستمولوجيا على أن هناك دائماً واقعا إنسانياً خلف وجهات نظرنا، تفسيراتنا، معتقداتنا، أفكارنا، مقترحاتنا، وما إلى ذلك»<sup>(٢)</sup>.

«فحقيقة المفاهيم داخل الفلسفة الأسسية هي حقيقة مستمدة من علاقة المفهوم بالمنظور وليس بعلاقتها بالواقع.... (بداخل الإبستمولوجيا ضد الأسسية) هناك ضرورة توافق النظرية مع الحقائق التي تشير إليها في الواقع أو انسجام القضية مع الواقع....»<sup>(٣)</sup>.

### ثالثاً: اللامقايسة العلمية والإقرار بالتعددية المنهجية

فكرة اللامقايسة واحدة من الأفكار التي أثارت خلافاً وجدلاً في بداية ظهورها داخل فلسفة العلم عام (١٩٦٢م) على يد علمين من أعلام فلاسفة العلم المعاصرين توماس كون وفيرابند الذي تناوّلها في كثير من مؤلفاته ولاسيما في بحثه المعنون بـ «التفسير، الاختزالية، والتجريبية»، تمثل هدف فيرابند الرئيسي في هذه المقالة نقد الوضعية المنطقية، أما كون فقد رأى أن فكرة اللامقايسة لعبت دوراً كبيراً في تطور العلم والنظريات العلمية، عرض كون اللامقايسة من خلال فكرته الشهيرة عن تتابع البراديمات داخل تاريخ العلم.

تعني اللامقايسة أن النظريات العلمية المختلفة في البراديمات المختلفة أو المراحل المختلفة لا يمكن الحكم عليها بالمعايير نفسها. «حتى النظريات التي تفسر الظاهرة نفسها لا يمكن مقارنة الواحدة مع الأخرى»<sup>(٤)</sup>.

(١) كد، آن، مرجع سابق، ص ٢١٧.

(2) Gruic Shank, Justin, Realism and Sociology: Anti- Foundationalism, Ontology and Social Research, Routledge, London and New York, 2003, p.76.

(3) Audi, O p. Cit, p. 813.

(4) Longino, H(1990). Science as Social Knowledge, Princeton University Press, p.27.



هناك نوعان من اللامقايسة: النوع الأول أطلق عليه «اللامقايسة السيمانتيقية» التي تنص على تنوع العبارات والمصطلحات المستخدمة داخل النظريات، أما النوع الثاني فهو «اللامقايسة الميثودولوجية» وتنص على عدم قابلية النظريات العلمية للمقارنة لعدم وجود معايير مشتركة بينهما، ارتبطت اللامقايسة الميثودولوجية بالنسبوية.

اللامقايسة تعني أن اللامقايسة بين وجهات النظر المتنافسة يشير إلى حقيقة أن أنصار وجهات النظر المتنافسة يتبنون معايير تقييم مختلفة<sup>(١)</sup>.

ناقش كون مفهوم اللامقايسة بوصفه علاقة بين البراديمات، تتضمن هذه العلاقة عناصر سيمانتيقية ودلالية مختلفة، فالمفردات المستخدمة من قبل العلماء يتغير معناها عند الانتقال بين البراديمات المختلفة، والبراديمات المتنافسة تكون بمثابة لغات متباينة لفهم العالم ووصفه.

«فلكي تحقق ما تميل إلى تسميته بالاختيار العقلاني بين البراديمات يتطلب تحقيق ذلك الأمر ترجمة تعبيرات براديم معين إلى لغة البراديم الآخر (ثمّة بديل آخر، هو ترجمة الاثنين إلى لغة ثالثة... وهي اللغة التي أطلق عليها بعض الفلاسفة لغة الملاحظة)<sup>(٢)</sup>. كل من كون وفييرابند رفضا فكرة المعنى المستقل ولغة الملاحظة المحايدة، لأن معنى العبارات المستخدمة من وجهة نظرهم داخل النظريات العلمية يعتمد على السياق الذي ترد فيه المفردات، وبمعنى هذا أن العبارات العلمية ليس لها معنى واحد وثابت على الدوام لأن هذا المعنى يتغير وفقاً للسياق النظري التي تستخدم بداخله هذه العبارات، ولا يمكن لهذه المعاني أن تشارك في معنى عام واحد. ووفقاً لكون المعايير المتعلقة بتقييم البراديمات تختلف من براديم لآخر، فكل براديم له ظروفه التاريخية الخاصة به والتي تمنحه مفردات معينة لا يتم فهمها وإدراكها إلا داخل السياق التاريخي التي ظهرت بداخله، وبقدر تعدد السياقات التاريخية واختلافها تتعدد البراديمات ويتعدد معها وسائل تقييمها والحكم عليها، لذا ليس هناك معايير ميثودولوجية معينة ومحددة وثابتة يمكن الاستناد إليها عند الحكم في المقارنة بين نموذج إرشادي وآخر، وبالطريقة نفسها ليس هناك ثقافة علمية واحدة يمكن أن تدعي لنفسها الأفضلية وبالتالي السيطرة استناداً لأفضليتها المزعومة، فلكل معرفة علمية سياقها النظري الفلسفي والتاريخي الخاص بها...

(١) لودان، لارى، العلم والنسبوية، مسائل خلافية أساسية في فلسفة العلم، ترجمة: نجيب الحصادي، محمد أحمد السيد، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص ١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٦.

إذن يمكننا القول بقدر تعدد الثقافات تتعدد النماذج الإرشادية بعبارة أخرى لكل ثقافة نموذجها الإرشادي الخاص بها وبالتالي لا يمكن فهم أي من النماذج الإرشادية إلا في ضوء المعايير الميثودولوجية الخاصة بكل ثقافة أو بكل مجتمع علمي من المجتمعات، ولكل مجتمع من هذه المجتمعات النموذج الإرشادي الخاص به المعبر عن ثقافته وتاريخه العلمي والاجتماعي. لذا لا يمكن فرض نموذج إرشادي معين له ظروف تاريخية خاصة به وحده على مجتمع آخر أو جماعة أخرى لها ظروف تاريخية أخرى مغايرة تماماً، وعند حدوث ظروف جديدة تستدعي تغيير النموذج الإرشادي المسيطر، فإن هذا التغيير يستدعي من وجهة نظر كون موافقة الجماعة العلمية للمجتمع العلمي الذي ظهرت بداخله هذه الحاجة الملحة للتغيير، وبتعبير كون نفسه «ليس هناك معياراً أعلى من موافقة الجماعة العلمية لمجتمع علمي معين. فالحكم بأن نظرية ما أحسن أو أسوأ من نظرية أخرى، إنما ينبغي الحكم عليها تبعاً لمعايير الجماعة العلمية المخصوصة وهذه المعايير تتغير بسبب الوضعية التاريخية والثقافية التي تكون فيها الجماعة العلمية»<sup>(١)</sup>.

وعندما يحدث وتغير نظرية ما، فإنه لا يجوز تعميم هذا التغيير على البراديمات المماثلة والموجودة في مجتمع آخر غير المجتمع العلمي الذي استدعي ضرورة التغيير والثورة على براديمه.

رأي كون أن إقراره باللامقايسة جعل البعض يوجهون له اتهاماً بأنه يرى استحالة الحوار والتواصل والتبادل بين النظريات العلمية نفى كون هذا الاتهام عن نفسه. فهناك نوعان من اللامقايسة: اللامقايسة الكلية التي تنص أن محتوى براديم معين لا معنى له وفقاً لبراديم آخر، واللامقايسة الجزئية التي ترى أن بعض (وليس كل) التصورات الأساسية أو القضايا الخاصة ببراديم معين ليس لها تعبير في البراديم المنافس (وربما يرجع ذلك إلى) عدم إمكان ترجمه تعبيرات أساسية لأي براديم بصورة تامة إلى لغات البراديمات المنافسة<sup>(٢)</sup>. اختلاف دلالة المصطلحات مثلاً الكتلة في النموذج النيوتوني ثابتة وفي نموذج النسبية لأينشتين تتغير بتغير السرعة، فهذه لا مقايسة بين المفهومين.

(١) شالمرز، آلان، نظريات العلم، ترجمة: الحسين سحبان وفؤاد الصفا، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص ١١٢.

(٢) لودان، لاري، مرجع سابق، ص ١٥٠.

أقر كون «باللامقايسة الجزئية وأكد على إمكانية الحوار والتواصل بين نظريتين علميتين بالحث والإقناع»<sup>(١)</sup>، والاختلاف يأتي من خلال «قراءة العالم للمصطلحات والمفردات والعبارات العلمية فكل عالم يقوم بفعل القراءة بطريقته الخاصة وفقاً للتقاليد التي ينتمي إليها»<sup>(٢)</sup>.

انطلاقاً مما سُمي وجهتي نظر لا قياسيتين حيث لا سبيل لأن نقيس إحداهما على الأخرى<sup>(٣)</sup>. مثال آخر عن اللامقايسة بمعناها الجزئي، هناك «لا مقايسة جزئية بين النظرية النسبية والنظرية النيوتينية من حيث أن النظرية النسبية لا تتضمن مصطلحات للحديث عن المكان والزمان بالصورة التي يدور بها الحديث في الميكانيكا الكلاسيكية، إذن «ليس بمقدورنا أن نأخذ ببساطة القضايا النيوتينية المتعلقة بهذه التصورات ثم نترجمها مباشرة إلى الحديث عن نسبية المكان والزمان، فثمة لا مقارنة (لا مقايسة) جزئية في حالة هاتين النظريتين الفيزيائيتين»<sup>(٤)</sup>.

إذن الإقرار باللامقايسة لا يعني عدم إمكانية تواصل العلماء وصعوبة قيام حوار بينهم من وجهة نظر كون أما فيرابند فقد كان موقفه أكثر جرأة من موقف كون، فإذا كان كون رأي ضرورة التزام النموذج الإرشادي الجديد بقواعد المنهج العلمي المتعارف عليها، فإن فيرابند صاحب مقولة (كل شيء مقبول) دعا إلى الخروج على تلك القواعد المنهجية التقليدية، ففكرة المنهج الذي يحتوي على مبادئ ثابتة غير متغيرة وملزمة بشكل مطلق من أجل تسيير أعمال العلم تواجه صعوبة كبيرة عند مواجهتها مع نتائج البحث التاريخي، «فلا توجد قاعدة واحدة تأسست بشكل عقلائي ثابت داخل الاستمولوجيا لا تخترق، حيث يصبح واضحاً أن مثل هذه الاختراقات ضرورية من أجل التقدم»<sup>(٥)</sup>.

أما فيرابند فقد صرح مرارا وتكرارا أنه يدين لكون في اهتمامه بمقولة اللامقايسة، اعتبرها فيرابند «قرينة التناول التاريخي للعلم ونتيجة من نواتجه ومن ثم يتقد دفاع فيرابند

(١) كون، توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥، ص ٢٧٢.

(2) Feyerabend, op.cit, p.18.

(٣) كون، توماس، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٤) لودان، لارى، مرجع سابق، ص ١٥٢.

(5) Ibid, p.14.

عن كليهما معا»<sup>(١)</sup> يرى فيرأبند أن لكل نظرية من نظريات العلم قيمة ومكانة في تاريخ العلم، ومن ثم يكون الحكم عليها وفقا لظروفها التاريخية، ولكل نظرية ظروفها الخاصة بها لذا لا يمكننا المقارنة بين نظريتين بمعايير ومقاييس واحدة، ووفقا لمقولة اللامقاييس لا يمكننا الزعم بأفضلية نظريه على أخرى، أو الزعم بتفوق حضارة بعينها على أخرى، وكما أن للنظرية قيمتها داخل تاريخ العلم المتطور باستمرار، فإنه لا يمكننا المقارنة بين هذه الحضارة وتلك ولكل حضارة قيمتها ومكانتها التاريخية مهما بلغت من البساطة أو كما يزعم البعض من سذاجة «يواصل فيرأبند المسير بمقولة اللامقاييس ليصبح من أقوى وأجراً نقاد الحضارة الغربية العلمية العلمانية، حين يجعل اللامقاييس ليست بين النظريات فحسب، بل بين الأنماط المعرفية ذاتها. فلا يعود ثمة مبرر لادعاء الأفضلية المطلقة للعلم الغربي بالذات على أشكال المعرفة الإنسانية الأخرى. إنه مجرد تقليد معرفي ضمن تقاليد معرفية عدة»<sup>(٢)</sup>، وكما أن كل عصر علمي يأتي مطورا أو مضيئا أو مغيرا لما قبله، فإن نهاية فعل الإضافة أو التغيير تعد نقطة بدء للقادم. ووفقا لمفهوم اللامقاييس أيضا أنا ولا يمكن المقارنة بين حضارتين أو ثقافتين لأن لكل الثقافة خصوصيته وقيمتها ومكانتها داخل التاريخ.

يعرف فيرأبند النظرية العلمية بوصفها طريقه نظر العالم إلى العالم، طريقه النظر تختلف من عالم لعالم آخر، وذلك لاختلاف قيم الأفراد المعرفية المختلفة بدورها لاختلاف الثقافات الذي ينتج عنه اختلاف معارف واعتقادات الأفراد، وعلى هذا الأساس ينظر العالم إلى العالم ويصوغ نظريته العلمية ويقدم لنا من خلالها معرفة علمية وفقا لتصوراته ومفاهيمه وفروضه المستمدة من داخل ثقافته المعرفية العلمية، لذا لا يمكن القول بأنه يمكن أن تكون هناك نظرية علمية واحدة يمكن تعميمها أو أنه يمكن المقارنة بين هذه النظرية وتلك.

ويقول فيرأبند عن مفهوم اللامقاييس «هي واحدة من المفاهيم الهامة.... اللامقاييس داخل العلوم ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمعنى الخاص بالمصطلحات...»<sup>(٣)</sup>.

وما سبق يعني من وجهه نظر فيرأبند أن معاني المفاهيم والمصطلحات مثل: الزمان والطاقة والكتلة والسرعة والجاذبية تختلف في الفيزياء الكلاسيكية عنها في الفيزياء المعاصرة

(١) الخولي، مبني، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص ٤٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٩.

(3) Ibid, p. 190.

لاختلاف الظروف والتطورات التي تحدث على مستوى البحث العلمي والواقع بشكل عام. المناطقة قد يعترضون من وجهه نظر فيراند بحجه أن «دراسة المعاني والعبارات وكذلك العلاقات بين المصطلحات هو مهمه المنطق وليس الأثر بولوجيا»<sup>(١)</sup>، يرى فيراند أن الرد على الاعتراض السابق للمناطقة يتلخص في تحديد أو تعريف المنطق: الآن قد يعني الفرد بالمنطق على الأقل معنيين مختلفين. المنطق قد يعني به دراسة أو نتائج دراسة البنيات المتضمنة داخل نوع معين من الخطاب، وقد يعني به نسق منطقي معين أو مجموعة من الأنساق. دراسة النوع الأول تنتمي إلى الأثر بولوجيا<sup>(٢)</sup>، فينظريات العلم والكلام ما زال على لسان فيراند ليست إنتاجاً إلهياً من صنع الإله وإنما هي إنتاجاً بشرياً تفرض علينا دراستها وفهمها وإدراكها «دراسة السجلات التاريخية، الكتب المدرسية، المصادر، سجلات المقابلات والمحادثات الخاص، الخطابات وما شابه»<sup>(٣)</sup>.

إذن الخطاب العلمي مثله مثل أي خطاب آخر له بنية تتمثل في مصطلحاته وعباراته ومفاهيمه، ولفهم معانيه المتضمنة لابد من فهم الإطار الثقافي الذي تنتمي إليه، يرى فيراند أن كل النظريات العلمية يمكن دراستها دراسة تاريخية وأنه يمكن الاستعانة في مثل هذه الدراسة بأعمال كون وأنصاره. رفض فيراند إمكانية أن يكون هناك أية قواعد ثابتة يسير عليها الخطاب العلمي أو العلم في كتابه المهم المذكور سابقاً ضد المنهج، فكرته الرئيسية هي الهجوم على كل النظريات التي تدعي السير وفقاً لقواعد منهجية ثابتة، المنهج الثابت وإن منحنا معرفة جديدة في عصر ما أو في فترة ما، فإنه لن يظل هكذا نظراً للظروف والإشكاليات التي تظهر من فترة لأخرى، وصف فيراند فكرة المناهج الثابتة الشاملة في كتابه المذكور بأنها فكرة «طوباوية» فكرة بعيدة كل البعد عن الواقع، والواقع متغير وأحداثه في تطور وتغير مستمرين. اختيارنا للنظرية أو تقييمنا لها سيعتمد على فهمنا لما يقع خلفها من خلفيات معرفية ثقافية.

(1) Ibid, p. 190.

(2) Ibid, p. 190.

(3) Ibid, p. 190.

## رابعاً: البنائية الاجتماعية كإبستمولوجيا ضد أسسيتها

«تعني البنائية الاجتماعية Social constructionism في أحد أهم أشكالها أن الاهتمامات الاجتماعية تؤثر على اختيار مجالات ومشكلات البحث، عبارة البنائية الاجتماعية استخدمت لتشير إلى برامج تحليلية لتاريخ وسوسيولوجيا العلم التي تتناول النظريات والفروض العلمية لتكون منتجات لبيئاتها السياسية والاقتصادية والثقافية... ترفض فكرة أن العلم هو علم موضوعي أو أنه يمنحنا رؤية غير متحيزة للعالم الواقعي»<sup>(١)</sup>.

المعرفة ليست نشاطاً فردياً وإنما هي نشاط اجتماعي، فالأفراد لا يمكنهم العمل بمفردهم على نحو كفاء، بل العمل الاجتماعي على نحو تعاوني يعد مثمراً ويمكن انجازه على نحو أكثر سهولة وسرعة من العمل الفردي، وإذا كانت النظريات العلمية بوصفها مجموعة من القضايا أو الجمل أو العبارات التي تعبر عن مجموعه من الدعاوي، وإذا كان عمل الفيلسوف داخل فلسفة العلم هو تحليل هذه القضايا، وإبراز ما تهدف إليه ومدى تماسكها من الناحية المنطقية أو تفسير وتوضيح البني المنطقية للنظريات العلمية، فإن النظريات العلمية أيضاً تتطور داخل سياقات اجتماعية وسياسية وتتفاعل معها على نحو ديناميكي مستمر.

الجماعات داخل سوسيولوجيا العلم هي صانعة أو منتجة للمعرفة، فإن هذا لا يعني أن «الأفراد لا يعرفون، لكن سوف يعني أن معرفتك ومعرفتي تعتمد على معرفتنا... فأنت أو أنا يمكن أن نعرف فقط ما نعرفه نحن...»<sup>(٢)</sup>.

داخل البنائية الاجتماعية البحث العلمي هو نشاطاً إنسانياً اجتماعياً شارك فيه أفراد عديدون مختلفون ينتمون لثقافات مختلفة، وتتحدد أهداف العلم وتتعين بوصفه نشاط اجتماعي إنساني.

البنائية الاجتماعية واحدة من الإبستمولوجيات ضد-الأسسية الهامة، «فكرة البنائية الاجتماعية هي فكرة ليبرالية ذات نزعة تحريرية ارتبطت في بداية ظهورها بالقضايا المتعلقة بالعرق، الجنوسة، والاستعمارية»<sup>(٣)</sup>.

(1) Longino, H, op.cit, p.9.

(2) Hankinson, L, N, Epistemological Communities, Linda Alcoff and Elizabeth Potter feminist Epistemologies, Routledge, London and New York, 1993, p124.

(3) Hacking, Ian, (1999). The Social Construction Of What?, The President And Fellows Of Harvard College, p.2.

وصفت «النزعة البنائية» داخل بعض الكتابات بوصفها كلمات رائجة لوصف موقف استثنائي داخل الدراسات (الإنسانية) الحديثة<sup>(١)</sup>.

ظهرت الدراسات الاجتماعية للمعرفة العلمية في سبعينيات القرن العشرين، كانت آراء توماس كون سببا كبيرا في ظهورها وتطورها على نحو كبير، رأي كون «أن العلماء ببراديماتهم المختلفة بشكل أساسي يعيشون بشكل فعال في عوالم مختلفة»<sup>(٢)</sup>، وكما سنرى كانت أيضا أعمال كلا من باري برانز (١٩٧٧-١٩٩٥) ودافيد بلور (؟- 1976) David Bloor and Barry Branes لها تأثير كبير على الدراسات الاجتماعية للمعرفة العلمية التي أصبحت تعرف لديهم وبشكل خاص داخل ما أطلق عليه بلور «البرنامج القوي لسوسيولوجيا المعرفة»، تناول غالبية منظور و العلم النسوي البرنامج القوي بالشرح والعرض داخل كتاباتهم ويأتي في مقدمتهم ساندر هاردنج ودونا هاراواي، بالإضافة لفلاسفة علم معاصرين أشهرهم فيليب كيتشر التركيز على التاريخ السوسيولوجي للعلم يعني دراسة العلم بوصفه مشروعا ضخما يعمل بداخله ويشرف عليه مجموعة من العلماء بشكل جماعي، ظهرت الحاجة للتركيز على هذا التاريخ بعد الحرب العالمية الثانية، أُطلق على الدراسات التي دعت إلى التركيز على الجانب التاريخي والاجتماعي للعلم دراسات «سوسيولوجيا علم ما بعد الحرب» و جدير بالذكر أن هناك تداخل كبيرا حدث في الأعوام الأخيرة بين فلسفة العلم وعلم اجتماع المعرفة، أول من دعي لهذا الارتباط كما ذكرنا باري برانز وديفيد بلور وكتابهم المهم «المعرفة العلمية: تحليلات سوسيولوجية»، طرحوا بداخله ما أطلقوا عليه البرنامج القوي لسوسيولوجيا المعرفة العلمية ورؤيتهم للدور المحوري الذي تلعبه الاهتمامات الاجتماعية في اختيار المشكلات العلمية، ناقشا داخل برنامجهم السابق أنه لا يوجد معيار أعلى من موافقة الجماعة للتسليم بالاعتقادات أو بالأفكار العلمية، الإقرار بالدور المحوري الذي تلعبه القيم الاجتماعية داخل العلوم، بالإضافة إلي أنهم «اعتبروا الاهتمامات تؤثر وعلى نحو أكثر عمقا على الممارسة العلمية»<sup>(٣)</sup>.

(1) Kukla, Andre, Social Constructivism and The philosophy of Scince, Routledge, NewYork, p.1.

(2) Audi, op. cit, p.855.

(3) Longino, op. cit, p.90.



ناقشا أيضا أن الاهتمامات الاجتماعية تحدد قبول الفروض داخل العلوم، وأنه:

- ١- ليس هناك معياراً أو سياق متجاوزاً ومتعالياً مستقلاً للتبرير العقلاني.
- ٢- تفسير سبب أن مجموعة من الاعتقادات التي توجد داخل سياق معطى يعتمد على السياق وليس على الخواص الداخلية للاعتقادات.

يتمثل هدف سوسيولوجيا العلم في وصف البحث العلمي بوصفه نشاطاً وفهم المعرفة العلمية، بوصفها ارتبطت وأنتجت من خلال ذلك النشاط. البحث العلمي هو ما يفعله العلماء بشكل جماعي: ارتبطت السوسيولوجيا بالعمل الجماعي، ارتبطت بكيف ولماذا يفعلونه..؟»<sup>(١)</sup> يعارض أصحاب مشروع سوسيولوجيا المعرفة العلمية التعريف التقليدي للمعرفة العلمية بوصفها إنتاجاً تراكمياً ومستقلاً عن الأفراد، المعرفة تعني بشكل عام امتلاك الأفراد للثقافة وتنتقل من جيل إلى جيل بوصفها جزء جوهري من تقاليدهم وثقافتهم، ولا يمكن فهم المعرفة وإدراكها بشكل صحيح إلا من خلال السياقات الثقافية والحضارية التي ظهرت بداخلها، وكذلك تقييم المعرفة والحكم عليها لا يتم الا داخل أو خلال السياقات المستخدمة لها، فمعارفنا جزء لا ينفصل أبداً عن خبراتنا وتجاربنا.

تتبنى البنائية الاجتماعية أو سوسيولوجيا العلم كما يطلق عليها البعض موقفاً ناقداً للنظر لتاريخ العلم بوصفه دراسة تتعلق فقط بالتاريخ الداخلي أو العقلاني، وليس ما يقع وراء العقلي والمنطقي من خلفيات ثقافية تاريخية وقيمية، فعالية الكتب التي تؤرخ لظاهرة العلم تؤرخ أكثر لمنطقه ومنهجه، وتؤكد على خلو العلم من كافة العوامل الثقافية والاجتماعية حفاظاً على موضوعية وحيادية العلم وصرامته المنهجية والمنطقية، وفي المقابل ظهرت الدعوات من أجل التركيز بجانب منهج العلم ومنطقه على التاريخ الاجتماعي للعلم، «ولم يكن هدف دراسة التاريخ الاجتماعي للعلم دراسة فقط للعوامل الاجتماعية الخارجية في نشأه العلم وإنما أيضاً دراسة الشروط والظروف الاجتماعية للأفكار النظرية للعلم، وبذلك أصبحت سوسيولوجيا العلم فرعاً من سوسيولوجيا المعرفة..»<sup>(٢)</sup>

(1) Branes, B and Bloor, D, H, J.(1995), Scientific Knowledge, a Sociological Analysis, The University of Chicago Press, p.110.

(2) Hess, M, (1980), Revolutions and Reconstructions in Philosophy of Science, The Harvester Press, p.29.



وهناك مدرسة باث Bath School متضمنة هاري كولينز (١٩٨٥ م) تروفيتش (١٩٨٦ م)...  
وُصِف كولينز بوصفه «حارس بوابة سوسولوجيا المعرفة رأي هؤلاء أن العلم تأسس  
بشكل تاريخي وأنه نشاط اجتماعي يكون مدركاً من خلال علاقته بالسياقات التي يحدث  
بداخلها»<sup>(١)</sup>.

يرى ديفيد بلور أن الحصول على معرفة علمية أفضل لن يكون إلا عن طريق دراسة  
العلم بوصفه ظاهرة اجتماعية إنسانية، الإيمان بالتعريف الذي يقدمه السوسولوجي للمعرفة  
العلمية بوصفها معرفه تتعلق بكل ما يؤمن به الإنسان ويحيا من خلاله وبهذا المعنى تختلف  
المعرفة العلمية في معناها عن المعنى الذي قدم داخل الدراسات التقليدية للعلم بوصفها اعتقاد  
صادق بشكل دائم، فالمعرفة العلمية من وجهة نظر السوسولوجي معرفة قابلة للنقد والتعديل  
والتغيير، ليس هناك معرفة واحدة مهيمنة، وإنما هناك معارف علمية عديدة ومتنوعة طبقاً  
لتنوع الثقافات والعوامل التي تؤثر وتتأثر بها لذا فليس غريباً أن نجد داخل الدراسات  
السوسولوجية للمعرفة العلمية ربط بين التطورات الاقتصادية، التكنولوجية والصناعية  
وأقوي النظريات العلمية»<sup>(٢)</sup>. ارتباط السوسولوجي بالمعرفة، متضمنة المعرفة العلمية...  
وتعريفه لها سيكون مختلفاً عن تعريف الإنسان العادي لها أو الفيلسوف. «المعرفة بالنسبة  
للسوسولوجي أي شيء يتناوله الإنسان ليكون معرفة: تتألف من المعتقدات التي يرتبط بها  
الإنسان بثقة ويعيش من خلالها»<sup>(٣)</sup>.

يركز السوسولوجي على العوامل المختلفة التي تؤثر على انتقال المعارف بين المجتمعات  
والثقافات، والعمليات التي تدخلت وشاركت في إنتاجها، والإبستمولوجيا المقدمة من قبل  
السوسولوجي هي إبستمولوجيا اجتماعية تري المعرفة ليس باعتبارها اعتقاد صادق مسوغ،  
وإنما هي نتاج لممارساتنا ومؤسساتنا الاجتماعية، أو للتفاعلات والمناقشات والمحدثات بين  
الجماعات العلمية.

المعرفة المقدمة من قبل سوسولوجي العلم هي معرفة اجتماعية Social Epistemology  
يتشارك في إنتاجها علماء ينتمون لثقافات مختلفة، معتمدين فيما بينهما على الاستعارات

(1) Bloor, David (1976). Knowledge and Social Imagery, Routledge, London, p.65.

(2) Ibid, p.3.

(3) Ibid, p.20.

والتبادلات، لم يعد الأفراد المستقلون عن الاهتمامات والقيم الاجتماعية هم صانعو المعرفة ومبدعيها، المعرفة الاجتماعية أصبحت تعتمد على المحادثات بين صانعو المعرفة وغيرهم سواء من لهم الاهتمامات المعرفية نفسها أو من قيم واهتمامات البشر العاديين.

هناك مؤلف آخر مهم داخل مجال سوسيولوجيا المعرفة العلمية لروبرت ميرتون Robert Merton وعنوانه «سوسيولوجية العلم، البحوث النظرية والتجريبية» The Sociology of Science, Theoretical and Empirical Investigations اشتهر ميرتون برؤيته للعلم بوصفه لا ينفصل أبدا عن النظام الاجتماعي الذي يرتبط بداخله ما هو فردي بما هو جماعي، وفي ذلك تأكيد على العلاقات التبادلية التي تجمع بين العلماء والمجتمع المحيط بهم، وأيضا على التعاون والتشارك بين العلماء، اعترض ميرتون على المبدأ الإبستمولوجي الذي يرى أن جماعات معرفية في لحظة معينة امتلكت بمفردها لحظة الوصول لأنواع معينة من المعرفة أطلق ميرتون على هذا المبدأ «الواحدة الاجتماعية»، الذي يعني أن جماعة واحدة كان لها حق الوصول والانتفاع بالمعرفة العلمية، وأطلق على هذه الجماعة جماعة الداخلين ويُعرف هذه الجماعة بقوله: «الداخلين هم أعضاء لمجموعات معينة شغلوا مراكز اجتماعية معينة مكنتهم من حق امتلاك المعرفة أما الخارجين فهم ليسوا بأعضاء»<sup>(١)</sup>. هذا الخارج يصبح محكوما عليه بالجهل والخطأ في مقابل الداخل القادر على المعرفة والفهم.

بالإضافة للأعمال السابقة هناك عمل آخر لباول فورمان Paul Forman ١٩٧١ عن نظريه الكوانتم «حاول فيه ربط قبول الفيزيائيين الألمان لتفسير ميكانيكا الكوانتم وربطها بالظروف الاجتماعية والسياسية العامة داخل الجمهورية الألمانية التي شكلت كرها شديدا للحتمية»<sup>(٢)</sup>. «فالأهداف والاهتمامات الموجودة بإمكانهما توجيهها الاستدلال والحجة: المساعدة في تفسير ظهور موضوع معين من المعرفة»<sup>(٣)</sup>.

إذن تهدف سوسيولوجيا العلم إلى عدة أهداف منها فهم البحث العلمي بوصفه عملاً يعمل بداخله العلماء والإداريين بشكل جماعي هذا من جانب، ومن الجانب الآخر يتبادل العلماء

(1) Merton, R, K, The Sociology of Science, Theoretical and Empirical Investigations, The University of Chicago Press, 1973, p112, 113.

(2) Branes, B, (1982) T.S Kuhn and Social Science, University of Edinburgh, p115.

(3) Ibid, p.115.

في بينهم بداخله الأفكار والمعلومات العلمية. تقديم ووصف العلم والنظريات العلمية في عبارات ومفردات يستطيع الإنسان العادي فهمها وتصورها. السوسيولوجي يعد ملاحظاً للعلم بمحاولته الدائمة ربط العلم بالنسق الاجتماعي والمؤسسات الاجتماعية المختلف. التركيز على التاريخ الاجتماعي للعلم وإبراز دور الحضارات والجماعات الأخرى في نشأته. العمل على تخليص البحث العلمي من كافة الانحيازات الثقافية والجنسية. التأكيد على العلم بوصفه عملية ثقافية تطورية، ويعني هذا أن المعرفة العلمية تطورت وانتقلت كما يتطور وينتقل الإنسان بأطوار النمو المختلفة أي من طور الطفولة ثم المراهقة ثم الشباب ثم النضج... الحكم على أية نظرية علمية سيكون الفيصل فيها هو مدى توافقها مع الواقع ومراعاة مصالح واهتمامات الجماعة. تمثل الذات الفردية باعتبارها جزءاً من الجماعة قوة فعالة داخل سياق سوسيولوجيا العلم ويتطلب هذا بدوره ضرورة دعم الموضوعية بعناصر سوسيولوجية..... وضرورة إبداع معايير ميثودولوجية تضمن في صميمها الأهداف السابقة والعمل على تدعيمها»<sup>(١)</sup>.

سوسيولوجيا العلم تعني أيضاً ضرورة أن يكون لدي العلماء وفلاسفة العلم توجهها أخلاقياً معيارياً بالإضافة لتوجههم الطبيعي بالإضافة لاهتمامهم بالطبيعة والبحث فيها، وبتعبير هاردنج: «الموقف الإستمولوجي في ظل مبادئ ما بعد الاستعمارية يصور لنا موضوعات معرفة نصية حول الطبيعة والمجتمع»<sup>(٢)</sup>.

البنائية الاجتماعية تمثل الالتقاء الحميم بين التعددية الثقافية والإستمولوجيا والمنهجية العلمية، تؤكد على ضرورة النظر إلى العلم بوصفه مؤسسة اجتماعية يعمل بداخلها أفراد عديدون ينتمون لحضارات وثقافات مختلفة.

البنائية الاجتماعية هي الأطروحة القائلة بأن المعرفة في جوهرها بناء اجتماعي، وأن إنتاج المعرفة محكوم بمحكات اجتماعية لها ما يبررها داخل المجتمع المتعين للعارفين. ولكن لا يمكن تبريرها خارج نطاق سائر المحكات الاجتماعية والمجتمعات المتعينة. أقرت البنائية الاجتماعية بالنسبوية وبدورها الهام، وأهميتها جاء استناداً إلى أن العلماء يعيشون داخل عوالم

(١) فلسفة العلم عند ساندر هاردنج: دراسة في تأثير ما بعد الاستعمارية على الميثودولوجيا النسوية، دراسة لنيل درجة الماجستير، إعداد: سماح عبدالله محمد إسماعيل، إشراف أ.د. ديميني الخولي، جامعة القاهرة، ٢٠١٢، ص ٧٢، ٧٣.

(2) Harding, Is science Multicultural?:Feminism and Epistemology, Indiana University Press,Bloomington and Indianapolis,1998, p17.

مختلفة، لذا فمن الطبيعي أن تكون نظرياتهم وبراديماتهم بتعبير توماس كون مختلفة بالضرورة، وكل نموذج من هذه النماذج يأتي إلينا متأثراً بالظروف الثقافية والمجتمعية المختلفة.

وعند الحديث عن «العلم داخل المجتمع أو العلم وعلاقته بالمجتمع، فإن البحث العلمي ينبغي تقييمه والنظر إليه لا بوصفه بحثاً مجرداً وإنما بوصفه أساساً للفعل والسياسة الاجتماعية، وبوصفه على نحو كبير أساساً للقيم والمثل»<sup>(١)</sup>.

لا أحد يستطيع أن ينكر تأثير الأفكار العلمية أيضاً على السياسات والقيم الاجتماعية والمثاليات الثقافية، وكذلك تأثير السياسات والقيم على العلم والممارسات العلمية، «نستطيع القول باختصار أن من نواتج موقف البنائية الاجتماعية أن التعددية الثقافية لديها حقاً وفعلاً ما تقدمه للعلم وفقاً للشروط المعرفية الخاصة بالعلم ذاته»<sup>(٢)</sup>.

إذا كانت إبستمولوجيا العلم التقليدية فرضت بوصفها نظريات ذات نزعة أسسية واهتمت في المقام الأول بالمنطق الداخلي للعلم وكيفية تبرير النظريات، في مقابل التجاهل التام لقيمة تاريخ العلم والجانب الأخلاقي والقيمي، سادت هذه النزعة بشكل كبير داخل إبستمولوجيا الحداثة أو إبستمولوجيا التنوير، وبمجيء فلسفة ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية وما بعد الاستعمارية وبالتالي فلسفة التعددية الثقافية، أصبح هناك ما أطلق عليه داخل فلسفة العلم بإبستمولوجيا.

العلم ذات النزعة ضد الأسسية. إذا كانت مبادئ فلسفة الحداثة كما ذكرنا من قبل قد قُدمت إلينا بوصفها مبادئ ذات نزعة كلية صالحة لكل زمان ومكان بغض النظر عن الاختلافات الزمانية والمكانية، فإن التعريفات التي تناولت النزعة ضد الأسسية تضعها دائماً في مقابل النزعة الأسسية ومن ضمن هذه التعريفات: «الفلسفة التنويرية فلسفة أسسية تهدف إلى القضايا الكونية... على النقيض من ذلك تعتبر النزعة ضد الأسسية المعرفة خاصة بألعاب اللغة بحيث لا يمكننا العثور على أو تبرير أفعالنا أو معتقداتنا من خلال أية حقائق كونية. توضح هذه الحجة فقدان الثقة في المشاريع الأسسية والإبستمولوجيا الكونية التي بررت مشاريع عالم هذه العقلية العلمية التكنولوجية والسياسية»<sup>(٣)</sup>.

(1) Longino, op.cit, p.162.

(٢) كد، آن، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(3) Barker, Chris, op.cit, p.71.

تتخذ الفلسفات ذات النزعة ضد الأسسية كما ذكرنا من قبل موقفاً مناهضاً من المبادئ أو الأسس الكلية التي لا يمكن الاعتراف معها بأية خصوصيات ثقافية وأخلاقية ومعرفية، إذا كانت الفلسفات التقليدية فلسفات ذات نزعة أحادية لا تعترف بتعدد الأطراف والمراكز وتعدد الخطابات المعرفية والقيمية، فإن فلسفة التعددية المقاومة لكل ما هو كلي وعام اتخذت من مفاهيم العقل والعقلانية والحقيقة كما ظهر وا داخل الفلسفات التقليدية موقفاً نقدياً، فالعقلانية مثلاً ظهرت داخل الفلسفات الأخيرة كما ذكرنا من قبل بوصفها مفهوم معياري أي معيار لما ينبغي أن يكون عليه الشيء أو الفرد فكل ما هو عقلائي وجب علينا الإقرار والوثوق فيه، و«الحقائق التي وردت إلينا من خلال الإستمولوجيا الأسسية العقلية هي حقائق عرفت بالثبات والعمومية ولا تقبل مجرد الشك لأنها حقائق مقدمة إلينا من قبل العقل، لذا فهي صحيحة منطقياً وبالضرورة»<sup>(١)</sup>، وفي مقابل هذه الإستمولوجيا تأتي إلينا إستمولوجيا النزعة ضد أسسية التي اتخذت موقفاً مناهضاً من الإستمولوجيا التنويرية التقليدية وزعمها بعموم نظرياتها و يقينها المطلق.

هناك نوعان من النسبوية: «النسبوية العقلية والنسبوية التاريخية هذا النوع من النسبوية ظهر بشكل كبير داخل دراسات التعددية الثقافية، التبرير الذي استند عليه علماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا في إقرارهم بالنسبوية هو أن دراساتهم التجريبية تكشف عن تنوع هائل في الأحوال الميثودولوجية والجوهرية»<sup>(٢)</sup>.

الحجج المؤيدة للنسبوية المعرفية سنجدها بشكل قوي نراها متجسدة في آراء باري برانز ودافيد بلور فيما يتعلق بالبرنامج القوي لسوسيولوجيا المعرفة.

رؤية البنائية الاجتماعية للمعرفة العلمية ارتبطت بإقرارها بالنسبوية المعرفية ودعمها، فالمعرفة العلمية ظلت لفترات طويلة ملكاً لجماعات يوظفونها لخدمة معتقداتهم ورغباتهم من أجل ضمان استمرار سلطتهم المعرفية وبالتالي السياسية على الآخرين، ركزت البنائية الاجتماعية على مصطلح «الاختلاف المعرفي» المناهض للانحيازات الثقافية والطبقية والجنوسية، أكدت على أن العلم يتحدد ويتعين وينتظم من خلال ممارساته، ويعني هذا بدوره أنه لا يمكن الفصل بين الجانب المعرفي والجانب العملي للعلم وأن قيم واهتمامات الأفراد والمؤسسات تلعب دوراً كبيراً في توجيه المعارف العلمية.

(1) Ayer, A, J, op.cit , p.16.

(2) Barker, C, op cit, p.32.

الدور السابق للبناءية الاجتماعية داخل العلم ليس بغريباً لأننا لو دققنا النظر في تعريفاتها السابقة وتعريفها التالي الذي ينص على أن «مفهوم النزعة البناءية ينص بدوره على أن الأحداث والظواهر تحدت بشكل ثقافي وتاريخي»<sup>(١)</sup>. نلاحظ هنا أن الأحداث والظواهر ذكرت بصيغة الجمع ولم يقصد حدثاً أو ظاهرة بعينها فمثلاً اللغة والهوية وحتى الجسد والنظر إلى جسد الإنسان كل هذا يعد من إنتاج الخطابات الثقافية السائدة داخل المجتمعات، أي نتاج للقيم والمعاني الخاصة بهذه المجتمعات أو تلك، لذا فليس غريباً الإقرار بأن «نظرة الأفراد للعالم محكومة بثقافتهم، إن مفهوم أن تكون إنساناً هو مفهوم ثقافي متغير من وجهة نظر النزعة البناءية، لأن المصادر التي تشكل البشر هي اللغات والممارسات الثقافية في أزمان وأماكن معينة»<sup>(٢)</sup>.

إذا رؤية البناءية الاجتماعية للعلم بوصفه محدد ومتعين بشكل اجتماعي أو بوصفه مؤسسة اجتماعية ليست غريبة وفقاً للتعريفات الواردة بشأن البناءية الاجتماعية «فالقوانين والنظريات والاكتشافات التي يقدمها لنا العلم تعتمد بشكل كبير على نشاط العلماء بوصفهم بشراً أو أفراداً ينتمون لمجتمعات أو ثقافات بعينها كما ذكرنا من قبل، لذا تكون نتائج الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا الجزئية بنيات اجتماعية»<sup>(٣)</sup>، بعبارة دافيد بلور «كل الأفكار التي شملتها العلوم الطبيعية مرشحة للتفسير السوسيولوجي»<sup>(٤)</sup>.

إذن عملت دراسات البناءية الاجتماعية داخل إبستمولوجيا العلم الضد أسسية على ربط العلم بالنسق الاجتماعي والمؤسسات الاجتماعية المختلفة أو التركيز على خبرات ومعارف المهمشين، أي أننا نقابل بداخل هذه الدراسات أيضاً تركيزاً كبيراً على الواقع الاجتماعي والسياسي والأخلاقي. فالعالم لا يمكن له الهروب من واقعه الذي يحيا بداخله، ففكرة نتاج لهذا الواقع ومشكلاته وتحدياته وعبارة أخيرة الأفراد بخلفياتهم الأخلاقية والاجتماعية والدينية يضيعون المعرفة.

(1) Ibid, p.32.

(2) Ibid, p.32.

(3) Hacking, Ian, Op. Cit, p.63.

(4) Bloor, David(1976).Knowledge and Social Imagery, Routledge, London, p.11.

## خاتمة

فلسفات العلم المعاصرة التي عُرفت باسم فلسفات علم ما بعد الوضعية تبنت في تفسيرها للنظريات العلمية موقفاً مختلفاً عما شاع داخل الفلسفات التقليدية ذات النزعة الأسسية، فمعها نجد تركيزاً على الجانب التاريخي والقيمي لهذه النظريات، وثورة على المعايير المنهجية الصارمة والدعوة إلى المغايرة والاختلاف والنسبوية في مقابل الثبات والواحدية المطلقة والتركيز على أفكار من قبيل اللاتماثل واللاتشابه واللامقاسية، ظهرت الأفكار الأخيرة لا سيما داخل كتابات علمين من أعلام فلاسفة العلم المعاصرين توماس كون وفييرابند. فعدم قابلية نظريتان ثقافتان للمقارنة لأن لكل منهما معاييرها وخصوصيتها ومعانيها ومفرداتها.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر والمراجع العربية

- ١- إسماعيل، صلاح، نظرية المعرفة، مقدمة معاصرة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٢٠.
- ٢- الخولي، يمني طريف، فلسفة العلم في القرن العشرين،: الأصول، الحصاد، الأفاق المستقبلية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١.
- ٣- آن، كد، التعددية الثقافية كفضيلة معرفية، كتاب: نقض مركزية المركز: الفلسفة من أجل عالم متعدد بعد استعماري ونسوي، ترجمة يمني طريف الخولي، الجزء الثاني، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- ٤- بدوي، عبد الرحمن، مدخل جديد إلى الفلسفة، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى. ١٩٧٥
- ٥- بدوي، عبد الرحمن، مدخل جديد إلى الفلسفة، كالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٥.
- ٦- جيمس، وليم، عالم متعدد. ترجمة وتقديم: أحمد الأنصاري، مراجعة: حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٩، القاهرة.
- ٧- زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٦.
- ٨- زكي نجيب محمود، نحو فلسفة علمية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٨.
- ٩- محمود، زكي نجيب، نظرية المعرفة، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٨. <http://www.hindawi.org>
- ١٠- كون، توماس، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.
- ١١- لودان، لاري، العلم والنسبوية، مسائل خلافية أساسية في فلسفة العلم، ترجمة: نجيب الحصادي، محمد أحمد السيد، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٥.



١٢- فلسفة العلم عند ساندرهاردنغ: دراسة في تأثير مابعد الاستعمارية على الميتودولوجيا النسوية، دراسة لنيل درجة الماجستير، إعداد: سماح عبدالله محمد إسماعيل، إشراف أ.د. يمني الخولي، جامعة القاهرة، ٢٠١٢.

### ثانيا: المعاجم

- ١- الجرجاني، علي ابن محمد السيد الشريف، التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي دار الفضيلة، القاهرة.
- ٢- الفيروز آبادي بن مجد الدين محمد بن يعقوب (٢٠٠٨). القاموس المحيط، راجعه واعتني به أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة.
- ٣- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣.
- ٤- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب العالمي، بيروت، ١٩٩٤.
- ٥- وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٧.

### ثالثا: المصادر والمراجع الإنكليزية

- 1-Audi, Robert, The Cambridge Dictionary of Philosophy, Cambridge University Press,1999.
- 2-Ayer, A, J, Language, Truth, And Logic, Cambridge University Press.
- 3-Barker, Chris, The Sage Dictionary of Cultural Studies, Sage Publications, London, 2004.
- 4-Bloor, David (1976). Knowledge and Social Imagery, Routledge, London. Branes, B and Bloor, D, H, J. (1995), Scientific Knowledge, a Sociological Analysis, The University of Chicago Press.
- 5- Bloor, David (1976). Knowledge and Social Imagery, Roudledge, London.
- 6-Branes, B, (1982) T.S Kuhn and Social Science, University of Edinburgh. 7Fyerabend, Against Method. Verso, London, New York, Third Edition 1993.

- 8-Gruic Shank, Justin, Realism and Sociology: Anti- Foundationalism, Ontology and Social Research, Routledge, London and New York, 2003.
- 9-Hankinson, L, N, Epistemological Communities, Linda Alcoff and Elizabeth Potter feminist Epistemologies, Routledge, London and New York, 1993.
- 10-Hacking, Ian, (1999). The Social Construction Of What?, The President And Fellows Of Harvard College.
- 11-Harding, Is science Multicultural?: Feminism and Epistemology, Indiana Universit Press, Bloomington and Indianapolis, 1998.
- 12- Hess, M, (1980), Revolutions and Reconstructions in Philosophy of Science, The Harvester Press.
- 13-Kukla, Andre, Social Constructivism and The philosophy of Scince, Routledge, New York.
- 14-Longino, H(1990). Science as Social Knowledge, Princeton University Press.
- 15-Merton, R, K, The Sociology of Science, Theoretical and Empirical Investigations, The University of Chicago Press.